

دور الحج في توطيد العلاقات بين الممالك الإسلامية الإفريقية في العصور الوسطى

The Role of Hajj in Strengthening Relations among the Islamic African Kingdoms during the middle Ages

هالة محسن عبده قلاوينة*

جامعة العريش - مصر

mokkaamr@gmail.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2026/01/31	2025/12/02	2025/11/19

الملخص:

تناول هذا البحث دور فريضة الحج في تعزيز العلاقات بين الممالك الإسلامية في القارة الإفريقية خلال العصور الوسطى ، فتوضح الدراسة إن الحج كان أداة فعالة في بناء جسور التفاهم والتعاون بين شعوب إفريقيا المسلمة ؛ إذ أن الحج ظاهرة حضارية شاملة تجمع بين أبعاد عديدة من دينية وثقافية وسياسية واقتصادية ، ومع تتبع أوجه التواصل الحضاري بين الممالك الإفريقية، أظهرت مدى تعزيز التواصل من خلال تبادل الأفكار، ونشر المذاهب الفقهية، وإبراز وحدة الهوية الإسلامية و روح الانتماء الحضاري ودورها في ترسيخ الوحدة الدينية والثقافية داخل نفوس أبناء القارة السمراء. والتحقق من التفاعل بين العلماء والتجار والحجاج على حدّ سواء. وهذه الدراسة تعتمد على منهج تحليلي تاريخي يستند الى المصادر الإسلامية الوسيطة وشهادات الرّحالة والجغرافيين المسلمين الذين وثّقوا رحلات الحج الإفريقية. فكانت كتابتهم تعتمد على رؤية العين أصل وأساس التوثيق، أو القضاة والدعاة الذين التقى بهم الحجاج في مصر أثناء مرورهم منها إلى الحجاز.

الكلمات المفتاحية: فريضة الحج، الممالك الإفريقية، التواصل، الحجاز، التعاون.

* المؤلف المرسل

Abstract:

This research examines the role of the Hajj pilgrimage in strengthening relations among the Islamic kingdoms of the African continent during the middle Ages. The study demonstrates that the Hajj served as an effective instrument for building bridges of understanding and cooperation among the Muslim peoples of Africa, as it represents a comprehensive civilizational phenomenon that encompasses multiple dimensions—religious, cultural, political, and economic.

By tracing the forms of civilizational interaction among African kingdoms, the study reveals the extent to which communication was enhanced through the exchange of ideas, the spread of jurisprudential schools, and the emphasis on Islamic identity and civilizational belonging. These elements played a vital role in reinforcing religious and cultural unity within the hearts of the peoples of the African continent.

The research also investigates the interaction among scholars, merchants, and pilgrims alike. It employs a historical-analytical methodology based on medieval Islamic sources and the accounts of Muslim travelers and geographers who documented African pilgrimage journeys. Their writings relied primarily on direct eyewitness observation as the foundation of documentation, as well as on the testimonies of judges and preachers whom the pilgrims met in Egypt during their passage to the Hijaz.

Key words: Hajj; African Kingdoms; Communication; Hejaz

مقدمة:

مثل الحج منذ صدر الإسلام وسيلة فعالة للتواصل بين المسلمين في أقاليم العالم المختلفة ، وبخاصة القارة الإفريقية التي شهدت قيام ممالك إسلامية متعددة مثل مملكة مالي ، وسونغاي ، وكانم وبرنو ، والممالك الإسلامية الإفريقية في الساحل الشرقي فكانت فريضة الحج لها أثر بالغ علي شعوب الأمة بمختلف أقاليمهم وثقافتهم خلال العصور الوسطي ، فرحلات الحج المتجهة إلي الحجاز لها دور محوري في نقل الأفكار والسلع والثقافات وسياسية الي جانب الاستقرار النفسي والروحي في ظل الجوار للإخوة المسلمين من مختلف الباقع وظهور كافة المؤثرات في سهولة ويسر .

دور الحج في توطيد العلاقات بين الممالك الإسلامية الأفريقية في العصور الوسطى

إذ كانت قوافل الحجاج تمر عبر طرق تجارية رئيسية مثل طريق تمبكتو-غدامس-طرابلس، وطريق كانو-القاهرة-الحجاز،¹ مما جعل من الحج وسيلة لنقل السلع والمعرفة معاً. كما حرص ملوك إفريقيا الإسلامية على أداء فريضة الحج بأنفسهم أو إرسال وفود رسمية تمثلهم، فأهتموا بعمل استراحات، ومحطات و مدن صحراوية علي طول الطرق التي تصلهم لمسارهم للحجاز مثل ملوك مالي ' حيث أن سكان مالي وهم "قبائل الماندنغو" من أرقى أجناس أفريقيا، كانوا أكثر الفئات تحمساً للإسلام ونشره، فلم يكن منسا موسي صاحب رحلة الحج الأكثر شهرة هو أول من خرج للحج أو تواصل مع العالم الخارجي، فقد سبقه عدد من ملوك مالي منهم ملك سكورة الذي ختم مسيرته الثرية بأدائه لفريضة الحج كسائر ملوك مالي لكنه قتل خلال رحلة العودة من الحجاز . وترجع أهمية هذا الموضوع إذ يسهم في الكشف عن طبيعة الروابط بين الممالك الإسلامية في إفريقيا، ودور الدين في ترسيخ مفهوم الوحدة والتكامل بين الشعوب المسلمة. وتطرح الدراسة تساؤلات عن هل كانت رحلات الحج مصدر للفكر العقائدي والديني في تلك الفترة؟ وهل هذا الفكر العقائدي المنبعث من رحلات الحج اقتحم خصوصيات المجتمعات الإفريقية؟ وما فعل تأثيره على الشعوب البدائية في الإسلام؟ وهل ظهر هذا التأثير على الجوانب الاقتصادية والعلمية، فجاءت هذه الورقة البحثية للتعرف على فريضة الحج لدى الشعوب الإفريقية وأهميتها لديهم وتأثيرها على هذه الشعوب.

1- دور الحج وأهمية لدى الشعوب الإسلامية

هو مؤسسة حضارية متكاملة، تجمع بين العبادة والتواصل الاجتماعي والثقافي والسياسي، وتساهم في تعزيز الأخوة الإسلامية ونشر قيم التسامح والمساواة. فهو رمز لوحدة الأمة ورمزاً لتفاعل الشعوب المسلمة، مع الحفاظ على الهوية الدينية والثقافية للأمة عبر العصور.

1.1 مفهوم الحج ودلالاته الحضارية

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، يجتمع فيه المسلمون من جميع أنحاء العالم لأداء المناسك في مكانٍ وزمانٍ واحد لأداء مناسك مخصوصة كالإحرام والطواف

والسعي والوقوف بعرفة. وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فهو مؤتمر سنوي عالمي للمسلمين يتساوون فيه باللباس والمكان والزمان. قال ابن خلدون² عن الحج: "هو من شعائر الإسلام التي تُذكر بوحدة الأمة وتجمع شتات المسلمين في صعيد واحد. "وكان الحجاج الأفاقة يقضون شهوراً طويلاً في رحلاتهم، ويعودون بعلمٍ وتجاربٍ جديدة تنعكس على مجتمعاتهم.

2- دور الحج في التواصل السياسي بين الممالك الإسلامية

أدّى الحج دوراً حيوياً في تعزيز العلاقات السياسية مع مراكز العالم الإسلامي وقد ساهمت هذه الرحلات في إدماج الممالك الإفريقية ضمن العالم الإسلامي سياسياً وربطها بالخلافة في بغداد أو القاهرة، كما كانت رمزاً للشرعية الدينية والسياسية لحكام تلك الممالك وسيلة حضارية وسياسية للتواصل بين المسلمين من أقاليم مختلفة. والتي ازدهرت فيها ممالك إسلامية قوية مثل غانا، ومالي، وسونغاي، كانم-برنو، ولا سيما اتصلت بالحجاز ومصر والمغرب الأقصى.

فقد سعى ملوك إفريقيا إلى إظهار ولائهم للخلافة الإسلامية في بغداد أو القاهرة من خلال إرسال وفود الحج، كما فعل منسا موسى ملك مالي 724هـ / 1324م خرج في موكب مهيب الذي رافقه آلاف الحجاج في مشهد عظيم، كما يضم عشرات الآلاف من الجنود والخدم، وكميات ضخمة من الذهب، مما جعله اتخذ طابعاً سياسياً واضحاً، وقد لقي ترحيباً رسمياً في القاهرة من السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، الذي اعتبره حليفاً سياسياً ودينياً. وتبادل الهدايا مع حكام المشرق. وقد ذكر المقرئ³ أن هذه الرحلة "جعلت اسم مالي يُذكر في بلاط القاهرة والحجاز"، كما أدى

الحج إلى إبرام تحالفات بين بعض الممالك الإفريقية المسلمة من خلال اللقاءات في مكة والمدينة.

1.2. أشهر النماذج السياسية التي شهدتها هذه الفترة:

حق أن يعود الفضل لمنسا موسى الذي نال اسم مالي شهرة كبيرة في الأندلس ومراكش وخراسان بسبب رحلته، إذ إنه في سنة (731هـ/1339م) وجد اسم مالي مكتوبا على خرائط العالم التي وضعها الجغرافي الإيطالي (أونجيلو دولسرت)، كما وجد في الأطلس الجغرافي الذي وضعه (أبراهام كريسك) Abraham Cresque (لشارل الخامس ملك فرنسا وفيه اسم مالي مرسوم بوضوح⁴.

فأصبح الحج ركيزة أساسية في ترسيخ مفهوم الوحدة السياسية للعالم الإسلامي رغم تباعد الأقاليم واختلاف الأجناس فقد اعتاد ملوك السودان إرسال بعثات رسمية سنوية إلى الحجاز ومصر لتقديم الهدايا إلى الحرمين الشريفين والخلفاء أو السلاطين القائمين على رعايتهما. وتذكر المصادر أن ملوك كانم وبرنو كانوا يرسلون وفودًا دينية وسياسية إلى مكة والمدينة محملة بالهدايا الثمينة، طلبًا للدعاء والاعتراف السياسي بهم. فذكر المقرئ⁵ “كان موسم الحج سوقًا للسياسة كما هو سوق للدين، يجتمع فيه الملوك والرسل والعلماء”، مما ساعد على بناء تحالفات سياسية دينيكا أسهمت تلك اللقاءات في توحيد الرؤى الفكرية وتقوية الصلات العلمية. وعاد الملوك والعلماء من الحجاز بأفكار حول نظم الإدارة والعدالة الشرعية، فانعكس ذلك على بنية الحكم في السودان. فقد أدخل منسا موسى وغيره من ملوك السودان إصلاحات إدارية بعد عودته من الحج، متأثرًا بما شاهده في القاهرة ومكة.

3- الأثر الاقتصادي للحج على الممالك الإفريقية

كانت قوافل الحج تمر عبر الطرق التجارية الكبرى في إفريقيا، فارتبط الحج بالنشاط التجاري. ففي طريق الحج وجدت شبكات طرق تجارية صحراوية قديمة ممتدة من ممالك السودان إلى الصحراء الكبرى وشمال إفريقيا ومنها إلى الحجاز، ذكر ابن خلدون أن الحج ساهم في "إحياء طرق التجارة بين السودان وبلاد العرب" تبادل القوافل الذهب، والعاج، والملح والمنسوجات مع سلع المشرق مثل التوابل، والورق، والنسيج وكذلك ونقل الخبرات المالية والإدارية بين إفريقيا والعالم الإسلامي. فأشار ابن خلدون⁶ إلى هذا التداخل بقوله: إن قوافل السودان يجتمع فيها الحجاج والتجار، فيكون الحج سوقاً للعبادة والتجارة معاً.

بالإضافة إلى أن ساهم في انتعاش الاقتصاد المصري والحجازي ويُعد الذهب أبرز صادرات ممالك السودان في العصور الوسطى، وكان للحج دور كبير في نقله وتداوله داخل العالم الإسلامي، ويذكر ابن بطوطة⁷ أنه شاهد أثر ذلك في الحجاز، إذ "عمّ الرخاء في مكة والمدينة من عطايا أهل السودان"، فجعلت هذه الرحلات الذهب الإفريقي عملةً متداولة في أسواق المشرق الإسلامي، وأسهمت في اندماج اقتصاد إفريقيا في منظومة التجارة الإسلامية العالمية. كما أسهمت رحلات الحج في تنمية الأسواق المحلية والأعمال الحرفية حيث أن الحجاج العائدون من الحجاز يجلبون معهم بضائع من المشرق مثل: الأقمشة، والبهارات، والورق، والمصاحف، والأواني المعدنية، ما أدى إلى تنوع السلع في الأسواق المحلية ونمو الصناعات التقليدية في السودان الغربي من أجل التبادل. ويذكر المقرئ التلمساني أن "أسواق تمبكتو وغاو قد امتلأت ببضائع مكة ومصر، وصار الحجاج تجاراً بما يأتون به من المشرق." كما نشطت موانئ الساحل الشرقي مثل مقديشو وزنجبار التي كانت تصدر سلع إفريقيا الشرقية إلى الحجاز عبر البحر الأحمر، وهو ما زاد من حجم التبادل التجاري

دور الحج في توطيد العلاقات بين الممالك الإسلامية الأفريقية في العصور الوسطى

بين إفريقيا والحجاز. مما جعل من فريضة الحج في العصور الوسطى ركيزة اقتصادية مهمة لممالك السودان الإفريقية.

4-النتائج الثقافية والاجتماعية للحج في أفريقيا الإسلامية

فريضة الحج في الإسلام منذ بدايتها ظاهرة إنسانية فريدة تجمع بين العبادة والتواصل الحضاري، فهي ليست مجرد رحلة روحانية إلى الأماكن المقدسة، بل ملتقى عالمي للمسلمين، أسهم هذا التواصل في تعزيز الشعور بالانتماء للأمة الإسلامية، كما فتح المجال أمام تبادل العلم والمعرفة، وانتقال المؤلفات الفقهية واللغوية من المشرق إلى أفريقيا، فقد كان الحجاج الأفارقة يلتقون بعلماء المشرق في مكة والمدينة، ويتلقون عنهم علوم الشريعة والحديث واللغة. مما ساعد على نشر اللغة العربية والفقه المالكي والشافعي في تلك الممالك⁸، وبعد عودتهم إلى بلدانهم، أسسوا المدارس والزوايا لنشر العلم، رغياً منهم في نشر العقيدة الصحيحة بين المسلمين الأفارقة وكان ذلك سبباً في ازدهار الحركة العلمية في مدن مثل تمبكتو، وجاو، وكانو، ومقديشو. وقد وصف ابن بطوطة رحلته إلى مالي بأنه وجد فيها "علماء وفقهاء درسوا في الحجاز ومصر، ونشروا العلم بين أهل بلادهم" فالجدير بالذكر أن السلطان منسا موسي كان يقيم مسجداً في كل مكان تدركه فيه صلاة الجمعة إذا كان مسافراً أو خارج عاصمته، ومن أهم هذه المساجد مسجد مدينة تنبكت الذي أصبح جامعة علمية، حيث وفد إليه العلماء وطلاب العلم من داخل مالي وخارجها، فبعد عودة المنسا من الحج حرص على بناء مجموعة من المساجد على الطراز الحجازي ذو الطابع السوداني التي أدت دوراً تعليمياً فضلاً عن دورها الديني، ويشير إلى ذلك المؤرخ السعودي⁹ بقوله: "ورجع موسي من الحج فابتنى مسجداً ومحراباً خارج مدينة كاغ، كما قام ببناء مساجد أخرى في أماكن متفرقة من البلاد".

علاوة على ذلك ظهر تأثير الحج في انتشار الأسماء الدينية، وازدياد الاهتمام بالتحصيل الشرعي فقد أسهم الحج في نشر قيم المساواة والتسامح داخل المجتمعات الإفريقية المسلمة، فكان الحجاج يعودون بوعي جديد حول العدالة الاجتماعية والأخوة الإنسانية التي تعلّموها في مكة والمدينة، مما ساعد في تخفيف النزعات القبلية وتعزيز الانسجام الاجتماعي. كما نقل الحجاج عادات المشرق في اللباس والطعام والاحتفال بالمناسبات الدينية إلى بلادهم، فظهرت ملامح ثقافية مشتركة جديدة. حيث تأثرت المجتمعات الإفريقية بما رآه حجاجها من تكريم المرأة في الإسلام ومشاركتها في الحياة الدينية، كما تأثرت المرأة بشكل الزبي العربي الإسلامي، فكانت النساء الحرائر تلبسن الحجاب الشرعي والملابس الطويلة الفضفاضة، والحرص على توفير الألبسة وستر العورة والاحتشام، كما اهتموا في تنبكتوا بعلم الفلك، لحاجة الناس إليه في السفر إلى مكة ومصر.

خاتمة:

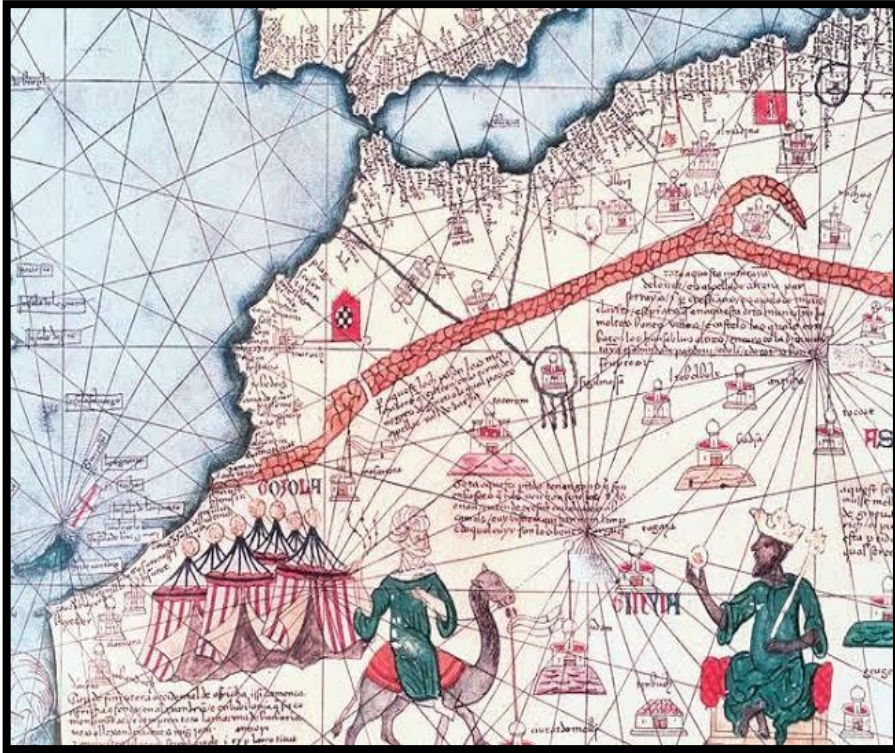
يتضح من خلال هذا العرض أن فريضة الحج لم تكن مجرد شعيرة دينية تؤدي في زمنٍ مخصوص، بل كانت مؤسسة حضارية متكاملة الأبعاد، جمعت بين البعد الروحي والسياسي والثقافي والاقتصادي. فقد أسهمت مواسم الحج في توطيد العلاقات بين الممالك الإسلامية الإفريقية، وربطها بالمراكز الكبرى للعالم الإسلامي مثل الحجاز ومصر والمغرب.

فجانب أنه وسيلة فعالة لتبادل المعارف الدينية والخبرات الإدارية بين الشعوب الإفريقية، فإنه عزّز أيضًا مكانة ملوك إفريقيا المسلمة الذين حرصوا على أداء الفريضة أو إرسال بعثاتهم الرسمية إلى الحجاز، فأصبح الحج رمزًا للشرعية السياسية والدينية لتلك الممالك. تؤكد هذه الدراسة أن فريضة الحج كانت ولا تزال جسرًا حضاريًا وإنسانيًا يربط بين أطراف الأمة الإسلامية، وأن إفريقيا في العصور الوسطى لم تكن بعيدة عن هذا الدور، بل شاركت فيه بفعالية، وأسهمت في ترسيخ قيم الوحدة والتكامل الإسلامي من خلال المشاركة الفاعلة

دور الحج في توطيد العلاقات بين الممالك الإسلامية الأفريقية في العصور الوسطى

في مواسم الحج والتواصل مع مراكز الإسلام الكبرى. وحري بنا معشر الشعوب الإسلامية الحرص دعم العلاقات بين الدول وبعضها للوقوف أمام التحديات المختلفة وتجاوز الحواجز اللغوية والقبلية والجغرافية، وترسيخ روح الأخوة الدينية، ونشر القيم الإسلامية الموحدة، وتعميق الإحساس بالهوية الحضارية الجامعة لأبناء القارة.

وبناء على ما سبق فنحن بحاجة إلى الاهتمام بتوثيق رحلات الحج الإفريقية القديمة من خلال دراسة المخطوطات المحلية والروايات الشفوية التي حفظت تفاصيلها. والعمل على ترميم وإحياء طرق الحج التاريخية القديمة باعتبارها تراثاً إنسانياً مشتركاً يجسد وحدة الأمة وتاريخها.



العنوان: رسم يمثل منسا موسي ملك مالي عن الخارطة الكروية لدولسير عام 1339. باريس المكتبة الوطنية Ge.Be 696¹⁰

الهوامش:

¹ إسماعيل العربي. الصحراء الكبرى: دراسة في الجغرافيا السياسية والتاريخية. القاهرة: دار المعارف، ص305

² -ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج4، ج5، بيروت: دار الفكر، 2001م، ص115.

³ -المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية) ج2، القاهرة، دار الكتاب المصرية، 1998م، ص230.

⁴ -ابن خلدون: العبر، ج5

⁵ - المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج3، بيروت: دار صادر، 1988م، ص90.

6 - نور الدين شعباني: علاقات ممالك السودان الغربي بالعالم الإسلامي، الجزائر: جامعة الجزائر، ص210.

⁷ - ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. ج1، بيروت: دار صادر، 1985م.

ص141

⁸ -جوزيف جوزن : الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، تر: مختار التسويقي، القاهرة: دار الكتاب المصري، 1404هـ / 1984م، ص75.

⁹ - السعدي :تاريخ السودان ،ص27 .

¹⁰ - عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج7، الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية، ص48.